ميتافيزيقا

الدرس الثالث عشر

القدّيس توما الأكويني

(2)

1. التماثل النسبي
ما هو بالضبط هذا التماثل الّذي طالما يتكلّم عنه محلّلو توما الأكويني؟
هو عبارة عن إضافة (relation) تؤسس مساواة مبنية على نسبة : "ا" هي ل"ب" ، ما "ت" هي ل"ث".
مثلاً : لوحة المفاتيح هي للحاسوب الإلكتروني ما القلم هو للورقة وما إلى ذلك من الأمثال.
أسهل الأمثال نجده طبعاً في الرياضيات : 2/5=4/10 الخ.

عل كلٍّ، ليس هذا التماثل كتماثل معنى "الكون" أو "الكيان"، أو ما يمكننا أن نسمّيه "التماثل الحملي (attribution)". ويذكّرنا توما أنّنا، مع الأسف، نخلط بين الإثنين.
في الحالة الأولى، ما يهم هو معنى الكلمة.
في الحالة الثانية، هناك نوع من البرهان.
ويقول توما الأكويني أنّ أرسطو يستخدم بالأخص المعنى الثاني.
حسناً، دعونا نقول إذاً مع توما الأكويني أنّه أساسي لكي نفهم كتاب الميتافيزيقا.
ولننظر إلى مثلٍ بسرعة :

لنأخذ على سبيل المثال الكم والكيف :
يجب فهم كليهما بواسطة التماثل النسبي : لكلٍّ منهما علاقة أوليّة، ولكن مختلفة، مع الجوهر : كما أنّه في "2 هي ل 4 ما 4 هي ل 8"، ل 2/4 و 4/8، كلّ واحدة على طريقتها الخاصة، علاقة مميَّزة مع ½ – بالنسبة ل 2/4 العلاقة هي "مضروبة ب 2 » وبالنسبة ل 4/8 العلاقة هي "مضروبة ب 4" – يلعب الجوهر دور ما هو أوّل، لا علاقة له بشيءٍ آخَر، أي غير نسبي، وهو ما يسمّيه توما الأكويني "المماثل الأوّل" (analogant primordial).

هناك إذاً نوعين أو شكلين من التماثل. والفرق بينهما، وبالأخص وجود النوع الثاني، يشكّل أساس كتاب الميتافيزيقا، وقد كتب الكثيرون عن ذلك وما زالوا يكتبون، منذ قرونٍ وقرون. وقد تركّز الجدال لمدّة طويلة، ولا يزال نوعاً ما، على قراءتي فيرّاريس وكاجيتان.
من الجيد أن نلاحظ ذلك ونذكره، لأنّه يسمح لنا بأن نرى الخلفيتين الأرسطية والأفلاطونية الحديثة في فكر القدّيس توما الأكويني.

حسناً... لنكون أكثر دقةً ووضوحاً، فنعطي أمثالاً أخرى تساعدنا على فهم نوعي التماثل.

التماثل الحملي :
1. الصلة بين عدّة أشياء وشيء آخر غيرها – "ordo duorum ad alterum".
لنأخذ مثال الصحّة الّذي رأيناه من قبل عند أرسطو مثلاً، وللنظر إلى حمله !
حمله مثلاً إلى الحصان، والطعام، والدواء.
الحصان وحده يملكها، أي يملك الصحة، صورياً (formell)، بينما لا يملكها الآخران بهذه الطريقة.
كيف يملكها الآخران إذاً؟
لا يحصلان على كيف الصحّة إلّا بحسب الدور الّذي يلعبانه في ما يخصّ الحيوان (الحصان)، إمّا للحفاظ عليه أو لشفائه.
يسمح هذا التماثل بإنشاء نوع من التسلسل الهرمي يرتكز على أوّل لفظ أو عنصر ويبدأ منه. يُعتبر اللفظ أو العنصر الأوّل، بالنسبة لهذا التسلسل الهرمي **مبدأه**، ومعرفته إجبارية لكي نعرف الباقين، وهو بالتالي **مبدأ أنطولوجي وإبستيمولوجيي**، أي مبدأ وجود ومبدأ معرفة.
وبالفعل، لا يمكننا أن نعرف ما هو الطعام الّذي يحافظ على الصحّة، الطعام الصحي، ولا ما هو الدواء الّذي يُعيدها، الدواء "الصحي" الّذي يشفي، دون أن نرجع إلى الجسد الحي الّذي هو بصحّةٍ جيّدة.

2. الصلة بين عدّة أشياء وواحدة من بينها - « ordo unius ad alterum ».
يمكننا أن نأخذ مثال الأخلاق.
فهي محمولة عن عمل الإنسان ومن ظروف هذا العمل.
فلا يمككنا أن نعرف ما هي أخلاقية ظروف معيّنة، دون أن نعرف أخلاقية العمل الّذي تحدّده هذه الظروف.

التماثل النسبي :
« analogia proportionnalitatis est diversorum ad diversa... plurium ad plura ».
العلاقة ليست هنا للأشياء فيما بينها، كعلاقة شيئين مثل الطعام والدواء بالجسد الحي مثلاً.
لدينا بالأحرى ما يمكننا تسميته **بعلاقة علاقة** أو **صلة صلات**، أي ما يسمّى في الحقيقة بالنسبية.
لنأخذ مثلاً عن ذلك !

لنأخذ جناح العصفور وزعنفة السمكة.
نرى بوضوح أنّه ليس هناك من تماثل حملي بين الأربعة.
ولكن زعنفة السمكة وجناح العصفور يشكّلان "مجدّف" لكلٍّ من الحيوانَين.
يمكن القول، إذا تكلّمنا مثل توما الأكويني أو أرسطو، أنّ "الجناح هو للعصفور كالزعنفة للسمكة". فللجناح وللزعنفة وظيفتان متشابهتان في علاقتهم أو صلتهم بشيءٍ آخر، وبهذه الوظيفتين يتم تحقيق وظيفة المجدّف **فيهما نسبياً** (أي في الجناح والزعنفة).

حسناً....
ليس هناك إذاً في هذه الحالة من علاقة أو صلة أو إضافة بين شيءٍ وآخر أو بين عدّة أشياء وشيء من بينهم، مثلما نجد في التماثل الحملي، بل صلات متشابهة لأشياء

مختلفة مع أشياء مختلفة هي الأخرى أيضاً.
ليس هناك في هذه الحالة غذاً من صلة مع مماثَل رئيسي تستوجب معرفته لكي نعرف الباقي.
لا يمكن إذاً أن نقوم بإعادة هذا التماثل إلى وحدة عددية، كمية، بل إلى وحدة نسبية.

لن أدخل في الإشكاليات والجدل بين فيراري (القائل بأساسية بالتماثل الحملي لدى توما الأكويني) وكاجيتان (القائل بالتماثل النسبي). ولكن أودّ أن تلاحظوا جيّداً بأنّ الإثنان على صواب، بل وما إذا درسناهما عن كثب نجد أنّهما يتّفقان على في العمق. ولكن على كلّ حال، ومهما تكن الاختلافات، علينا أن نوافق بين نوعي التماثل لكي نفهم فكر توما الأكويني الخاص بالعالم والكيانات، وبوجودها، وبعلاقتها مع الله.
يمكن أن نقول ما يلي :

في بعض نصوصه يقوم توما الأكويني، دون أن يبوح بذلك أو يقوله بوضوح، بتحديد المخلوقات، بالأخص في كتاب ال Summa الأوّل مثلاً، بشكلٍ عام. فيقول أنّ المخلوقات لا تملك الكون إلّا في علاقتها مع الكون/الكِيان الأوّل : فنجد هنا بالطبع تماثل حملي.
وفي نصوصٍ أخرى، **عن الحقيقة** (De veritate) مثلاً، يرفض تحديد الألفاظ؟ العناصر الثانوية بواسطة عنصر أساسي، وهو يشكّل بالتالي، لكونه عنصراً أساسياً، المبدأ. وعندها يُحدّدُ المخلوق دون الرجوع إلى المبدأ الأوّل، أي إلى الله.

2. الكون (الكيان)
ماذا عن "الكون أو "الكيان"، الّذي يشكّل كما نعرف محور الميتافيزيقيا الأساسي ؟ أتكلّم عنه مبشرةً بعد التماثل لأنّه على صلة وطيدة به.
على الأقلّ هنا، يتّفق كلّ المعلّقين :
الكون هو نسبة الذات على الوجود : « ens est id cujus actus est esse ».
ما يهمّ إذاً هي صلة الذات بالوجود. وبالتالي لا يمكن فصل الأولى عن الثاني، علينا أن نأخذهما أو نأخذ بهما سوياً.
يمكننا إذاً القول بأنّ الكون ليس فقط الذات – كما قد يقول بارمنيدس – وليس فقط الوجود – وبالتالي لا وجود لأشياء جزئية وحدها – بل هو **ما هو كائن**.
يمكننا أيضاً القول أنّه علينا أن نفهم "ما هو كائن" كالتالي : « ما هو موجود أو يمكن أن يوجَد".
يعني ذلك أنّه هناك في الكون ما هو فعلي وما هو ممكن، ما يمكنه أن يوجَد.
لنتحدّث عن ذلك بعض الشيء !

وكلّ ذلك يشكّل قصّةً أخرى طويلة سيدخل فيها اليسوعيون بصوت سواريز... ولكن أيضاً القرن السابع عشر، بصوت وقلم مالبرانش ولايبنتز. ...